

أما قبل:

قبل أن يشكل صلاح الدين الأيوبي نقطة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية وقبل مولده بأكثر من نصف قرن تقريباً كان الصليبيون قد أسسوا أربع إمارات صليبية في الرها وإنطاكية وبيت المقدس وطرابلس .

ولقد اختلف المؤرخون في تحديد أولى المواجهات بين المسلمين والصليبيين إذ يرجعها بعضهم إلى معركة اليرموك سنة 636م التي انتصر فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه على هرقل إمبراطور الروم ،وما تلاها من مواجهات بين الطرفين ،وغارات من الروم ثم إذعانهم للعباسيين ،ودفع الجزية ،وما تحفل به كتب التاريخ والأدب العربي من بطولات كبطولة الخليفة العباسي المعتصم 0

كما أفلح الفاطميون فيما بعد في تحرير المدن التي احتلها الصليبيون وأرغموهم على الانسحاب إلى

بلادهم(1)0

ويسجل التاريخ بطولات المسلمين من السلاجقة الأتراك وعلى رأسهم السلطان السلجوقي ألب أرسلان الذي انتصر على الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجنس في موقعة مانزكرت سنة 364هـ-1077م وحرر بيت المقدس والرملة وأنطاكية وحلب ، وأسر الإمبراطور الروماني ديوجنس مقابل فدية كبيرة واتفاقية لم يرض عنها البيزنطيون (2)0

ولقد اشتهروا لإطلاق صفة الحروب الصليبية شرطين أساسيين هما :-

1- أن تكون الأماكن المقدسة في فلسطين هي الهدف 0

2- أن تكون تحت إشراف الكنيسة وتهدف بزعمهم إلى تقديم المساعدة لمسيحيي الشرق من ظلم المسلمين ،وحماية قبر المسيح وكنيسة القيامة والحجاج من اعتداءات المسلمين ،وأن يحمل المشارك في هذه الحروب

إشارة الصليب (3)0

دوافع الحروب الصليبية:

عقد البابا أوربان الثاني مؤتمراً في مجمع الأساقفة بمدينة كليرمونت الفرنسية في الثامن والعشرين من نوفمبر /تشرين الثاني عام 1059م ،حضره ممثلون عن جميع دول أوروبا وحشود ضخمة من الأمراء والفرسان والعامّة ،وألقي فيه خطاباً(4)يعكس الدوافع الحقيقية للحروب الصليبية والتي تنوعت بين دافع ديني وآخر اقتصادي وثالث سياسي 0

1- **الدافع الديني:-**

نزع المناطق التي شهدت حياة المسيح عليه السلام وإنقاذ قبره من أيدي المسلمين المختلسين -كما وصفهم أوربان في خطابه- ثم إنقاذ الحجاج النصارى من الأذى والاضطهاد الذي يصيبهم وهم في طريقهم إلى بيت المقدس 0 وهنا يمكن إثبات كذب هذه الادعاءات بالإشارة إلى رأي أحد كبار المؤرخين الأوربيين الذي يرى بأن حالات الاضطهاد كانت فردية ، وأن المسيحيون تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية فقد شيّدوا الكنائس والأديرة وجمعوا في مكنتاتها كتباً دينية متنوعة في اللاهوت(5)0

2- **الدافع الاقتصادي:-**

جاء في خطاب البابا قول السيد المسيح عليه السلام: (إنكم ستأخذون ميراثاً عظيماً) وذكر المؤتمرين بما جاء في التوراة :- (هذه الأرض تفيض لبناً وعسلاً) (6) ووصف أقاليم آسيا بقوله:- (هي أقاليم آسيا بجملتها وغناها وخزائنها التي لا تحصى)0

لقد ضرب البابا على أكثر الأوتار حساسية ، وإثارةً للحماسة ، حيث كان شمال غرب أوروبا يعاني من سوء الأحوال الاقتصادية ، وسيادة نظام الإقطاع بمساوئه المعروفة ، وانتشار الأوبئة ، وما تلاها من جفاف ومجاعة (1) لذلك اتجهت الأنظار صوب بلاد المشرق الإسلامي بغناها وراثتها ، وهذا ما سيؤكد استعراض أحداث الحروب الصليبية .

3-الدافع السياسي :-

(الهجوم هو خير وسيلة للدفاع) فبدلاً من انتظار السلاجقة حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوروبا الغربية يجب مهاجمتهم في عقر دارهم (2) .

خلف هذا شعار استتر الصليبيون وكل منهم يخفي مطامعه وأهدافه الحقيقية ، أما البابا فقد رأى أن هذه الحملات هي الوحيدة القادرة على توحيد الصف والقضاء على الخلافات الداخلية ، حيث قال في خطابه :- (لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي اتخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر .) ويعدد البعض دوافع أخرى يمكن أن تندرج تحت هذه الدوافع .

الحملات الصليبية :-

أثار خطاب البابا حماساً شديداً ، حيث تدافع الجميع للركوع بين قدمي البابا وأداء يمين الإخلاص للمسيح والاستماتة في إنقاذ قبره من أيدي مدنسيه ، وتحرير الأماكن المقدسة في فلسطين ، وتعبيد طريقها للحجاج المسيحيين ، ولقد حدد البابا موعداً لبدء الحرب في عيد العذراء 15 أغسطس آب سنة 1096م من العام المقبل ، وتكون القسطنطينية هي نقطة تجمع الجيوش للانطلاق ،وهو بذلك يعطي الفرصة لتجمع الجيوش والتبشير بالحروب المقدسة ، والتي تشكل طريقاً للمغفرة والتحلل من الذنوب وخاصة بالنسبة للمجرمين وقطاع الطرق (3).

الحملة الصليبية الأولى:-

تشكلت الحملة الصليبية الأولى من حملتين :- حملة الشعوب ، وحملة الأمراء .

أما حملة الشعوب فقد تشكلت بقيادة بطرس الناسك - أكثر المتحمسين للحروب الصليبية - ووالتر المفلس ، وقد ضمت أكثر من خمسة عشر ألف صليبي معظمهم من الطبقات الدنيا في شتى مناطق أوروبا .

وقد انصرف اهتمام هذه الحملة إلى السلب والنهب فلم تنتظر انضمام القوات الصليبية المنظمة إليها ، ورغم

مسارعة الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين إلى نقلهم عبر البسفور إلى آسيا الصغرى ، وتمكنهم من هزيمة فرق الجيش السلجوقي ، وارتكابهم أبشع الجرائم إلا أنهم هزموا وقضت عليهم جنود السلاجقة المسلمين ولم ينج منهم إلا قليل كان من بينهم بطرس الناسك الذي عاد إلى القسطنطينية (4).

2- حملة الأمراء :-

خرجت في الموعد المحدد جيوش جرارة من جميع دول أوربا أُطلق عليها اسم الجيش المتحد (5) ، وبلغ عدد المحاربين حوالي ثلاث مائة ألف توجهوا من القسطنطينية إلى ممالك آسيا الصغرى الإسلامية ، بعد أن أدى القادة قسم

الولاء للإمبراطور الكسيوس كومنين الذي اتفق معهم على تزويدهم بالمؤن والعتاد ، وبفرقة من الجيش البيزنطي بقيادة تانكيوس ، ووعدهم بالانضمام إليهم عندما تسمح ظروفه ليتولى قيادة الجيش ، وفي المقابل عاهدوه بعدم التعرض للقرى البيزنطية ، وإعادة جميع الأراضي التي كانت تحت السيطرة البيزنطية قبل موقعة مانزكرت ، والاعتراف بالإمبراطور الكسيوس سيداً على كل المناطق التي سيحتلونها .

ودخلت الجيوش إلى نيقية عاصمة السلطان السلجوقي قلعج أرسلان الذي كان مشغولاً بحصار مطية ، وحاصرت الجيوش المدينة ، ورغم عودة قلعج أرسلان إلا أنه لم يفلح في الوصول إلى مدينته ، وقد أدى انسحابه إلى الجبل إلى ارتفاع معنويات الصليبيين ، وزاد في قوتهم وصول أسطول بقيادة بوتوميتس ، ثم انضمام الإمبراطور الكسيوس بجيوشه البيزنطية إليهم حيث تمكن من أسر زوجة قلعج أرسلان وأولاده ، ولكنه رفض تسليمهم للصليبيين الغربيين ورفض السماح لهم بنهب المدينة (1) ، وقد شجع هذا الانتصار باقي دول أوربا المترددة على الانضمام للحملة الصليبية ، وتم تقسيم الجهود للسيطرة على الممالك الإسلامية ، حيث أفلح الإمبراطور الكسيوس في استرداد مدن غرب آسيا الإسلامية التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية قبل موقعة مانزكرت .

وقد وقعت مواجهات بين باقي الجيوش الصليبية وأمراء السلاجقة الروم ، انتصرت فيها الجيوش الصليبية ، ثم اتجهت الجيوش الصليبية الغربية ، وبعض الفرق البيزنطية من مرعش إلى الشام ، وقد أراد الإمبراطور الانضمام إليهم في حصار إنطاكية إلا أن أنباء وصلتهم عن خلاف في وجهات النظر بين فرقه والفرق الصليبية الغربية جعلته ينيب عنه قائده تانكيوس في الانضمام إلى القوات الصليبية في حصار إنطاكية . وفي أثناء ذلك انفصل بلدوين عن القوات الصليبية ، وبدأ يسعى لتحقيق مطامعه ، وقد نجح في تحقيق بعضها () ، ثم اتصل به حاكم الرها ، ودعا لمساعدته على أعدائه السلاجقة في سميساط ، حيث تمكن بلدوين من الإيقاع بين الأرمن وحاكمهم ثوروس ، وقتل ثوروس فخلصت الرها لبلدوين ، وكان أول أمير صليبي يحقق مطامعه ، وكانت الرها أول إمارة صليبية في الشرق ، ثم استولى بلدوين على سميساط وسروج . أما باقي القوات الصليبية فقد وصلت إلى إنطاكية في أكتوبر تشرين أول 1097 م وفرضت عليها حصاراً شديداً استمر سبعة أشهر استتجد خلالها الحاكم السلجوقي ياغي سيان بالقوى الإسلامية التي كانت في شغل شاغل عنه () وبالرغم من وقوع الفرقة بين قادة الجيوش مصر الفاطمية - على تقاسم الممالك الإسلامية ، بحيث تكون الشام للصليبيين ، وبيت المقدس للفاطميين () ،

بالإضافة إلى وصول الأساطيل الأوربية بالإمدادات ، وكذلك عامل ثالث أهم وهو عامل الخيانة () ، كل ذلك أدى إلى سقوط إنطاكية في جمادى الأولى سنة 491 هجرية الموافق 3 يونيو حزيران سنة 1098 م ، ومقتل من فيها من المسلمين وتحويل مساجدها إلى كنائس () .

ولقد واصل الصليبيون تقدمهم لتحقيق مطامعهم ، ثم قرر ريموند مرافقة جودفري ، و التوجه بالجيش لاحتلال بيت المقدس () ، حيث أمدهم النصارى في بيروت بما يحتاجونه من مؤن ونصح ورجال ومروا بصور وصرفند وقيساريه وعكا ثم احتلوا الرملة، ووصلوا إلى بيت المقدس في 7 يونيو حزيران 1099م ، وأحكموا الحصار عليها بينما وصل الأسطول الجنوبي إلى يافا في 15 يونيو حزيران 1099م ، واستولى على مينائها ، وأمد الجيش الصليبي بالإمدادات ، ولم يرسل الأفضل

بن بدر الجمالي الإمدادات لحاكم بيت المقدس الفاطمي افتخار الدولة لثقتة بالوعود الصليبية ، وهكذا رغم صمود أهل بيت المقدس و حاميتها الفاطمية أربعين يوماً تحت الحصار ، تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة في 22 شعبان 492 هجرية الموافق 15 يوليو/تموز 1099م ، وملاحقة الجند داخل المسجد الأقصى ، وارتكاب أبشع الجرائم ، وفي ذلك يقول أحد مؤرخيهم (أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم) (1)، أما جود فري فقد أرسل للبابا يبشره بهذا النصر فقال :- (ن خيولنا كانت تخوض إلى ركبتيها في بحر من دماء الشرقيين في إيوان سليمان ومعبده) .

(2) وقد عدد القتلى بنحو سبعين ألف قتيل . وفي ذلك يقول أبو المظفر الأبيوردي :- ()

وكم من دماء أبيضت ومن دما
بحيث السيوف البيض محمرة الطبي
وتواري حياء حسنها بالمعاصم
وسمر العوالي داميات للهازم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة
تظل لها الولدان شيب القوادم

كل ذلك والخلافة العباسية تقف موقف المتفرج ، وكل ما يفعله الخليفة المستظهر هو إحالة المستغيثين إلى سلطانه السلجوقي بركياروق المعروف بملازمته للشرب ، والذي لم يحرك ساكناً () .

وهكذا واصل الصليبيون زحفهم على مدن وقرى فلسطين براً وبحراً واستولوا عليها كلهم ما عدا عسقلان ، وبذلك قامت الإمارة اللاتينية الثالثة في الشرق وهي إمارة بيت المقدس ، وعين عليها جودفري الذي لقب نفسه بلقب حامي القبر المقدس () .

الحملة الصليبية الثانية :-

نما الشعور بالذنب والتقصير عند معظم أمراء وحكام المسلمين على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ، وقد ساعد على نمو هذا الشعور ازدياد مطامع الصليبيين واشتراك المزيد منهم في مهاجمة المدن والقرى الإسلامية التي

شهدت في الوقت نفسه ميلاد بعض الأتابكة الأتراك الذين برزوا كقوة إسلامية فتية أخذت على عاتقها مهام التصدي للخطر الصليبي الداهم ، وكان أول من شعر بسوء فعلته واقترب من مملكته هو الملك الأفضل بن بدر الجمالي الذي أخلص النية للتكفير عن خطيئته فسير الحملة تلو الأخرى لتخليص فلسطين ومحاربة الصليبيين ، وفي الوقت نفسه تمكن السلاجقة الأتراك من هزيمة الصليبيين عام 494 هجرية - 1100م حيث أوقع غازي كمشتكين الجيش الصليبي في كمين أعده لهم قرب ملطية فقتل أعداد كبيرة ، وساق قائد الجيش بوهمند الأول مع الأسرى إلى قلعة نيكسار () ، كذلك هزم الجيوش التي جاءت لتحريره، وقتل أكثر من مائه وستين ألف صليبي واحتل ملطية بعدما أسر أميرها الصليبي ، واستعاد قونية ، واتخذها عاصمة له ليقطع طريق الإمدادات من القسطنطينية .

وفي عام 1109 تمكن الصليبيون بعد طول حصار من الاستيلاء على مدينة طرابلس، وقتلوا الرجال وسبوا الحريم والأطفال ، وغنموا الأمتعة والأموال ، اخذوا بعدها مدينة جبلة ، وبذلك تمكنوا من تأسيس رابع وآخر إمارة صليبية في الشرق الإسلامي () 0

وتزخر كتب التاريخ في تلك الفترة بالكثير من البطولات كبطولة الأمير ممدود الذي أوقع بمشاركة مجموعة من أمراء الجند ببلدوين الأول ملك بيت المقدس وجيشه في كمين وقتل من الصليبيين خلقاً كثيراً . () وتبرز الأحداث أول أبطال التصدي عماد الدين زنكي الذي تمكن سنة 529 هجرية من تحرير الكثير من القرى الشامية () ، ونجح عام 532 هجرية في دحر جيوش الإمبراطور البيزنطي ، وقتل وأسر أعداداً كبيرة منهم () ، وفي سنة 534 هجرية استعاد حصن بارين () ، وفي سنة 539 هجرية استعاد مدينة الرها من أيدي الصليبيين ، كذلك انتزع سروج من أيديهم ، وقد تغنى الشعراء بهذا النصر ، من ذلك قصيدة الشهرزوري :- ()

إن الصفائح يوم صافحت الرها عطفت عليها كل أشوس ناكب

فتح الفتوح مبشراً بتمامه كالفجر في صدر النهار الآيب

وبعد استشهاد عماد الدين زنكي () تولى ابنه سيف الدين غازي إمارة الموصل بينما تولى نور الدين محمود حلب ، وقد تصدى للذين حاولوا استرداد حلب فمزق جموعهم سنة 542 هجرية ، وقتل بلدوين الثاني ()

وسارع البابا يوجين الثالث إلى الدعوة إلى حرب صليبية جديدة لتعويض الخسائر ، والتصدي لهذه الأخطار وقد استجاب لدعوته لويس السابع ملك فرنسا وكنراد الثالث ملك ألمانيا فسارعوا بجيوشهم التي تصدت لها جيوش المسلمين فلم تتمكن من تحقيق أية انتصارات .

الحملة الصليبية الثالثة :-

لم يكن فشل الحملة الصليبية الثانية عام 543 هجرية هو المنذر الوحيد بضياح هيبة الصليبيين في الشرق ، ولم تكن هزيمة لويس السابع وكنراد الثالث هي الهزيمة الوحيدة ، فقد حملت السنون اللاحقة أنباء عشرات الهزائم التي لحقت بالصليبيين وكانت السبب وراء إرسال حملتهم الثالثة على الشرق الإسلامية فبينما تصدى سلاجقة الروم ببسالة لكنراد

الثالث وجنوده () تمكن سلاجقة الشام بقيادة السلطان سعود سلطان قونية من هزيمتهم قرب ضريليوم سنة 542 هجرية ، فانضمت فلول الصليبيين إلي لويس السابع الذي كان يسعى لاحتلال دمشق ، وهناك قابلهم حاكم دمشق السلجوقي معين الدين أنر ورد كيدهم سنة 543 هجرية ، رغم أعدادهم الكبيرة أما نور الدين محمود فصب هجماته على الجيوش الصليبية حيث اتجه لمهاجمة ريموند أمير إنطاكية () وتمكن من الانتصار في عام 543 هجرية . وفي شهر صفر 544 هجرية هاجم قلعة أنب ، وقضى على من فيها من الصليبيين ومن بينهم ريموند أمير إنطاكية () ، كما هاجم نور الدين محمود حصن حارم التابع لأمانة إنطاكية وأسر حاكم إنطاكية الجديد () ، في العام ذاته استولى على حصن فاميه ، () ، وفي عام 545 هجرية أنزل بالصليبيين عدة هزائم وأسر عدوه الصليبي جوسلين الثاني واستولى على عدة مدن وقرى () .

وعلى مختلف الجبهات كانت هناك هجمات ناجحة على الحصون الصليبية ، ولكن شهد العام 548 هجرية ضياع أهم الحصون الإسلامية على ساحل فلسطين وهو حصن عسقلان () .
وفي عام 549 هجرية كان عموري الأول متجها بجيشه لغزو مصر في اللحظة التي احتدم فيها الصراع بين وزيرها شاور بن مجير الطامع في الوزارة ضرغام بن سواد ولكن بمجرد اقتراب الجيش الصليبي كان ضرغام قد استولي على وزارة مصر الفاطمية وتمكن من إكراه عموري وجيشه على الانسحاب () ، أما أمير الجيوش شاور بن مجير السعدي فقد استعان بنور الدين محمود ليعينه على العودة للوزارة في مصر فأرسل معه حملة بقيادة أسد الدين شيركوه في العام 599 هجرية ، وبعد أن تمكن أسد الدين من إعادة شاور إلى الحكم في مصر والقضاء على منافسة ضرغام نكث شاور بعهده لنور الدين استعان بالصليبيين لطرده أسد الدين وجنده في مصر ، فعقد الصليبيون العزم على الاستيلاء على مصر ، وحاصر الجيش المصري جند أسد الدين في بلبس ، وفي هذه اللحظات الحرجة قام نور الدين محمود بعدة هجمات على الحصون الصليبية في الشام لقطع الإمدادات عن بلبس ، واحتل حصن حارم بعد أن قتل من الصليبيين عشرين ألفاً وأسر جميع من كان فيه بما في ذلك بوهيمند الثالث أمير إنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس وجوسلين الثالث وهو الثامن () فعقد الصليبيون الصلح مع أسد الدين الذي لم يكن يعلم بانتصارات نور الدين محمود، وانسحبت الجيوش الصليبية من مصر وعاد أسد الدين بجيشه إلى الشام في ذي الحجة سنة 559 هجرية () ، بينما واصل نور الدين محمود انتصاراته وتمكن من هزيمة الصليبيين في بانياس والسيطرة عليها سنة 560 هجرية () .

بزوغ فجر صلاح الدين:-

كانت العودة الثانية لصلاح الدين إلى مصر بصحبة عمه أسد الدين شيركوه في ربيع الآخر سنة 562 هجرية حيث لم ينس أسد الدين شيركوه غدر شاور وتحالفه مع الصليبيين () ، ولقد التقى جيش المسلمين بالصليبيين
فاقتتلوا قتالاً عظيماً فهزم الفرنج ولله الحمد ، وسار أسد الدين بعد كسر الفرنج إلى الإسكندرية فملكها واستتاب عليها ابن أخيه صلاح الدين وعاد إلى الصعيد فملكه () ، ثم صالح شاور أسد الدين عن الإسكندرية بخمسين ألف دينار فأجابته إلى ذلك وخرج صلاح الدين منها وسلمها إلى المصريين وعاد إلى الشام في ذي القعدة () .
أما العودة الثالثة لصلاح الدين إلى مصر فكانت لمواجهة جيش عموري الأول الطامع في الاستيلاء على مصر وذلك في منتصف شهر ربيع الأول ، وقد سارع الصليبيون عند سماعهم لنبأ هذا الجيش بالرحيل عن مصر ، ووقع شاور في أسر صلاح الدين الذي قتله نزولاً عند رغبة الخليفة ، وبعد التخلص من شاور ألبس الخليفة العاضد أسد الدين شيركوه خلعة الوزارة () ، وبعد وفاته ألبس صلاح الدين بن أيوب بن شادي خلعة الوزارة () ، وعندما علم نور الدين محمود بالمؤامرات التي تدبر ضد صلاح الدين أرسل له أخاه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه الذي تولى التصدي للمتآمرين () ، كما تصدى صلاح الدين بنفسه للجيوش الصليبية الطامعة في الاستيلاء على مصر وذلك بمعاونة الجيوش الشامية التي أرسلها نور الدين () .
وشهد عام 566 هجرية اهتمام صلاح الدين ببعض الإصلاحات الداخلية كإنشاء المدارس ، وقطع الأذان بحي على خير العمل وعزل قضاة الشيعة ، كذلك شرع في عمارة سور القاهرة ، وعين على حراسته بهاء الدين قراقوش ، كذلك بدأ هجماته على الصليبيين وأمن الطريق بين مصر والشام () .

وفي سنة 567 هجرية أعلن صلاح الدين بناءً على رغبة نور الدين محمود تبعية مصر للخلافة العباسية في بغداد ، وخطب للخليفة العباسي المستضيء بالله على منابر مصر .
وأخذ صلاح الدين في نصر السنة ، وإشاعة الحق () ، وقام بالعديد من الإصلاحات () ، وقد تغنى الشعراء بأعمال صلاح الدين ومن ذلك قول عرقلة الدمشقي () :-
أصبح الملك بعد آل عبيد مشرفاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو م ومصر تزهو على بغداد
ما حووها إلا بعزمٍ وحزمٍ وصليل الفؤاد في الفولاذ

إشراق شمس صلاح الدين :-

في عام 569 هجرية توفي نور الدين محمود الذي كان نوراً للدين ، وعدواناً على أعدائه الصليبيين () ، فظن الصليبيون الفرصة سانحة لاستعادة ما ضاع من أيديهم في الشام ولكن صلاح الدين كان لهم بالمرصاد حيث تصدى لهم وتمكن من إعادة توحيد جنود المسلمين وأمرائهم في الشام ، وإعداد الجنود للتصدي للخطر الصليبي () .0

ولقد حدثت العديد من المواجهات من المواجهات بين صلاح الدين والصليبيين كان فيها النصر حليف صلاح الدين ، كذلك قام بهدم حصن بيت الأحزان () . ولكثرة ما لحق بالصليبيين من هزائم وقتلى اضطروا إلى عقد هدنة مع صلاح الدين () ، استغلها الأخير في توحيد الجبهة الإسلامية () ، عندما خرق الصليبيون الهدنة في عام 578 هجرية باستيلائهم على قافلة للمسلمين خرج صلاح الدين بجيوش كثيفة لتأديب أرناط ومن معه من الصليبيين ونجح في ذلك () . ولقد شرع صلاح الدين في وضع خطة تمكنه من القضاء على جيوش الصليبيين وفي سنة 583 هجرية /1178م شرع صلاح الدين في تنفيذ خطته ، حيث عمد إلى إرهاب الصليبيين قبل الاشتباك معهم حتى تم له النصر عليهم في معركة حطين ، وكان عدد الصليبيين اثنين وثلاثين ألفاً لم يفلت منهم إلا نحو مائتين ، وممن وقع في الأسر الملك وبرنس الكرك أرناط وأخي الملك جفري وغيرهم كثيرون () . ولقد تغنى الشعراء بهذا النصر ومن ذلك قول العماد :- ()

يا يوم حطين والأبطال عابسة وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقراً مغفراً خده والأنف قد تعسا

وبعد معركة حطين تابع صلاح الدين انتصاراته السريعة على الصليبيين فاستولى على معظم الحصون والقلاع الصليبية في العام نفسه وتمكن من تطهير معظم بلاد الشام في أقل من ثلاث سنوات ، ثم استولى على عكا والناصره وقيسارية وحيفا..... الخ ، ولم يدم الأمر على بيت المقدس أكثر من أسبوع حوصرت فيه حتى استسلمت في 27 رجب 583 هجرية/12 أكتوبر 1197 م ، ودوى صوت المؤذن في المسجد الأقصى ، وانزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من فوق قبة الصخرة () .

ولقد دفعت انتصارات صلاح الدين الصليبيين إلى نبذ خلافاتهم وتلبية نداء البابا جريجوري الثامن وتجهيز جيش من أكبر الجيوش الصليبية ، ضم إمبراطور ألمانيا بجيشه وملك إنجلترا بجيشه وملك فرنسا بجيشه .

وشرع صلاح الدين في إعداد الجيوش الإسلامية ودعوة جميع أمراء المسلمين للمشاركة في الدفاع عن بيت المقدس والأراضي الإسلامية ، وتمكن صلاح الدين من هزيمة الجيوش الصليبية عند تل المصليين قرب عكا () .

وتواصلت الإمدادات للصليبيين بينما لم يُجب الخليفة العباسي طلب صلاح الدين بالمعونة () ، وبعد فشل الصليبيين في الاستيلاء على المدينة بعد حصارها () ، عاد ملك فرنسا إلى بلاده بينما قاد ريتشارد قلب الأسد الجيوش الصليبية للاستيلاء على بيت المقدس ، ولكنه اضطر في النهاية إلى طلب الصلح فوقعت اتفاقية الرملة في شوال 585هجرية /سبتمبر أيلول 1192م لتعلن انتهاء الحملة الصليبية الثالثة وفشلها في الوصول إلى بيت المقدس . ()

غروب شمس صلاح الدين :-

بعد انقضاء خطر الحملة الصليبية بنحو ستة شهور انتقل صلاح الدين إلى جوار ربة يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة 589 هجرية /مارس آذار 1193م ، وقد ترك وراءه عدواً يريد أن يلتهم الأراضي الإسلامية إضافة إلى سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحد ، وسبعة عشر ولداً ذكراً وابنة صغيرة () . والأهم من ذلك كله سيرة عطرة وبطولة نادرة لم ينجب الزمان مثلها بعد سواء في الشرق أو الغرب () .

الحملة الصليبية الرابعة :-

بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي توزعت الأراضي الإسلامية بين أبنائه وإخوانه () ، وقام النزاع

بينهم

وانحاز كل طرف إلى طرف آخر حتى سيطر الملك العادل أخو صلاح الدين على مصر ومعظم بلاد الشام ، ولقد أغرت هذه النزاعات الصليبيين بإعداد حملة صليبية رابعة دعا إليها البابا أنوسنت الثالث سنة 594 هجرية/1198م

ولكن جهود هذه الحملة انصرفت إلى محاولة إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية للكنيسة الغربية الكاثوليكية ، ومحاولة التشفي من الإمبراطور اسحق انجيلوس الذي قاوم الحملة الصليبية الثالثة وتحالف مع صلاح الدين ضدهم ، والذي كان قد استعان بالحملة الصليبية الرابعة للقضاء على ثورة أخيه الكيسوس انجيلوس . وهكذا ذاب الشعار الذي استتر خلفه الصليبيون لتحقيق مصالحهم الاقتصادية ومطامعهم الشخصية والسياسية () .

الحملة الصليبية الخامسة:-

شهدت الأراضي الإسلامية بعض المحاولات الصليبية للتوسع بعد تحول الحملة الصليبية الرابعة عن الشرق ، ولقد تصدى المسلمون لهذه الحملات وعلى رأسهم الملك العادل () ، وعلى الرغم من قيام الملك حنا دي برين بتوقيع اتفاقية هدنة مع الملك العادل لمدة ست سنوات في عام 608هجرية إلا أنه أخذ يدعو إلى حملة صليبية جديدة على الشام وصلت طلائعها إلى عكا عام 614هجرية ، حيث وصل دوق النمسا ليوبولد السادس ، وملك هنغاريا أندريه الثاني وملك قبرص هيو وغيرهم

وعندما أدرك الملك العادل عدم إمكانية التصدي لها أرسل في طلب المعونة من الحكام والأمراء المسلمين (ولما واجهت الحملة صعوبة الاستيلاء على بيت المقدس ،فكر حنا دي برين في الاستيلاء على مصر أولاً للوصول إلى بيت المقدس لذلك أرسل يطلب الإمدادات والحمالات التي وصلته بقيادة بلاجيوس القائد الأعلى للجيش الصليبي وكان حنا دي برين قد نجح في الاستيلاء على برج السلسلة في دمياط ،وقد توفي الملك العادل في سابع جمادى الآخرة 615هجرية إذ مرض أسفاً وحزناً على ذلك الحصن ولقد حدثت بموته بعض الاضطرابات التي مكنت الصليبيين من ارتكاب جرائمهم المعتادة من قتل وسرقة ونهب وارتكاب أبشع الفظائع)،فأرسل الملك الكامل بن الملك العادل يطلب المعونة وبدأ سيل العساكر الإسلامية يتدفق من كل مكان ولكن جحافل التتار بدأت تزحف على الشرق مرتكبة نفس ما ارتكبه الصليبيون من جرائم بائنة بالدولة الخوارزمية ،فرأى الملك الكامل ضرورة التوجه لحماية الجبهة الإسلامية الشرقية من خطرهم ،ولذلك عرض الصلح على الصليبيين بشروط مغرية إلا أنهم رفضوا طمعاً واغتراراً () .

ولكن الظروف اضطررتهم بعد ذلك إلى قبول الصلح على ما أراد الملك الكامل ليكون يوم التاسع عشر من رجب إعلاناً لفشل الحملة الصليبية الخامسة على الشرق .

الحملة الصليبية السادسة:-

لم تلق دعوة البابا هنريوس الثالث لحكام أوروبا لتسيير حملة جديدة على بيت المقدس أذناً مصغية وذلك لعوامل كثيرة مختلفة منها طغيان نفوذ البابا الديني على نفوذ حكام أوروبا السياسي،ولكن الصراع على السلطة وصل بالملك الكامل إلى حد جعله يعرض بيت المقدس مع كل ما حرره صلاح الدين على الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا في مقابل الوقوف معه ضد أخويه الملك المعظم والملك الأشرف .ولقد تردد فردريك الثاني على الرغم من إباح البابا جريجوري التاسع () ،

ولقد تجمعت عدة ظروف كاد بسببها بيت المقدس ينجو من هذا المصير ،ولكن فردريك الثاني استطاع بحنكته ومهارته أن يحصل عليها كهدية من الكامل سنة 627هجرية () ولم يحفظ له الصليبيون هذا الصنيع بعدما أهدى لهم أنفس طالما فشلوا في الوصول إليها بينما انصرف الملك الكامل عن القدس إلى محاصرة الشام ونهب أهلها وضمها إلى ملكه . ()

الحملة الصليبية السابعة:-

توالت الأحداث المأساوية على العالم الإسلامي في تلك الفترة،وتعددت مصادرها وكثر أبطالها فمن حرب بين الأيوبيين إلى هجمات الخوارزميين ، وهجمات السلاجقة،هذا بالإضافة إلى خطر أعداء الدين الرابض على أرض المسلمين وخطر التتار الذين بدأت هجماتهم تجز رؤوس المسلمين ،ولقد أخذ الصليبيون يفكرون بجدية في الإعداد لحملة صليبية جديدة بعدما رأوا ما ترتب على وفاة الملك الكامل من صراعات بين ابنه الأكبر الصالح أيوب حاكم حصن كيفا وغيره من بلاد الجزيرة وابنه العادل الثاني.ومع تطور المواجهات وقع الملك الصالح أيوب وجاريتيه أم ولده خليل شجر الدر في الأسر () .وفي تلك الأثناء وصلت طلائع الجيوش الصليبية إلى عكا سنة 673 هجرية

/ 1229م هجرية وقد انتصر عليها الجيش الإسلامي ، وفي عام 637 هجرية تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب حكم مصر () .

وخشي الصالح إسماعيل من انتقامه وتحالف مع سلاجقة الروم ثم مع الصليبيين ضد جميع أمراء الأيوبيين وسلمهم القدس وطبريا وعسقلان وغيرها من المدن والحصون وفي خضم هذه الأحداث اشتدت هجمات التتار وجاءت رسلهم بالتهديدات () . لذلك حاول الصالح أيوب أن يرجئ مواجهة الصليبيين ببعض التنازلات () . أما القوات الخوارزمية فقد نجحت في استرداد بيت المقدس وبعض مدن وقرى فلسطين من أيدي الصليبيين عام 643 هجرية وفي عام 643 هجرية انعقد مجمع ليون لإرسال حملة إلى الشرق لتدارك الموقف () . ولم يستجب للأمر إلا لويس التاسع ملك فرنسا ، وشهدت تلك الفترة مرض الصالح أيوب () . ثم وفاته في ليلة النصف من شعبان سنة 674 هجرية فتمكن الصليبيون من تحقيق بعض الانتصارات وخاصة بعد وصول الإمدادات لهم () . وقد تصدت لهم الجيوش الإسلامية بقيادة بيبرس البندقداري وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكان ممن قتل رو برت أخو لويس ثم حدثت المواجهة الحاسمة بينهم وبين الملك المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب عند فارسكور وهلك معظم أفراد الحملة ولم ينج من القتل إلا أسير وكان من بين الأسرى الملك لويس نفسه الذي سجن في دار ابن لقمان بالمنصورة وأكل الطواشي صبيح المعظمي بحراسته () . وهكذا انتهى أمر الحملة الصليبية السابعة في ثالث المحرم سنة 648 هجرية (وتزامن انتهائها مع غروب شمس الأيوبيين وسقوط دولة المماليك بعد مقتل تورانشاه على يد المماليك الصالحية في السابع والعشرين من شهر محرم سنة 648 هجرية

ولقد عاصرت نشأة دولة المماليك بعض الصراعات ، وخاصةً بين المماليك والأيوبيين حتى توسط الخليفة العباسي المعتصم بين الطرفين وعقد الصلح بينهما في إبريل سنة 651 هجرية () ليضع المماليك حداً للزحف المغولي على الشرق ، وانتفاع الصليبيين بهذا الزحف (0) ، وذلك بعد هزيمة المغول في عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان سنة 658 هجرية أمام جيوش المسلمين بقيادة قطز () .

وتولى الظاهر بيبرس فيما بعد مهمة القضاء على الوجود الصليبي في الشرق (0) ، فحرر القرى والمدن ، وحطم معاقل الصليبيين الواحد تلو الآخر حتى تمكن في النهاية من الاستيلاء على أقوى المعاقل الصليبية في الشرق وهي إمارة إنطاكية عام 666 هجرية . وسلمت حملة صليبية ثامنة مما كان ينتظرها بعد فشلها في الوصول إلى الأراضي الإسلامية بوفاة قائدها الملك لويس التاسع ، الذي كان قد أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة () .

ويبدو أن الفشل في تلك الآونة أصبح صديقاً حميماً للصليبيين ، وكذلك المغول حيث فشلت جيوش نشأت عن تحالف الطرفين في تحقيق أية انتصارات حيث تصدى لها السلطان خليل بن قلاوون ، ومزق تحالفاتهم وفرق جندهم وقلم أظافر الصليبيين (0) ، وانتزع ما بقي من أراضٍ إسلامية تحت أيديهم (0) ، وفي النهاية ضرب حصاراً على عكا حيث استسلمت في عام 691 هجرية لتعلن نهاية الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي بشكله القديم (0) .